

## كتب الفتاوي وقيمتها الاجتماعية : \*

- مثال نوازل البرزلي -

بقلم : سعد غراب

### I - ملاحظات تمهيدية :

#### 1) تضارب الآراء حول أهمية الكتب الدينية في دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

منذ سنوات عديدة عندما بدأت الدراسات التاريخية العلمية المهمة بالبلاد العربية الإسلامية في الظهور رأينا بعض الأصوات وبعض الكتابات تؤكد على وجوب إعطاء الجوانب الاجتماعية والاقتصادية نصيبها في الدراسات التاريخية ..

فهذا مثلاً الأستاذ كلود كاهان (Claude Cahen) وهو من أبرز المختصين الفرنسيين المعاصرين في التاريخ الإسلامي ينادي بذلك في محاضرة

---

(\*) أعد هذا البحث بإعانة مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية في نطاق برامج عمل سنة 1975 .

أُلقيت سنة 1954 ونشرت سنة 1955 بعنوان : التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمشرق الإسلامي في القرون الوسطى (L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval) (1) ويبيّن خاصّة الهوة الموجودة بين الدراسات المتعلقة بالعالم الغربي والدراسات المتعلقة بالإسلام والعالم الشرقي (2) .

ولئن كان الإتفاق على المبادئ أمراً ميسوراً فإن التطبيق هو الأعسر . وأول مراحل التطبيق فيما يتعلق بهذه المسألة هو التساؤل عن المصادر التي يمكن أن تعين الباحث في ذلك ، وهنا اختلفت النظريات وطال الجدل شيئاً ما خاصة حول قيمة الإعانة التي يمكن أن تقدمها الكتب الفقهية والدينية بصفة عامة للدراسات الإجتماعية والإقتصادية التي لها صلة بالتاريخ الإسلامي . فلئن أشار سوفاجي Sauvaget مثلاً إلى هذه التآليف في كتيبه المنهجي : « مدخل لتاريخ المشرق الإسلامي » (Introduction à l'histoire de l'Orient musulman) واعتبرها من مصادر التاريخ الإسلامي (3) فإنه تحسر على ندرة وثائق الأرشيف في البلاد الإسلامية وتساءل عن أسباب ذلك رغم أن الحضارة العربية الإسلامية كانت أكثر ازدهاراً من الحضارة الغربية ولا تقل إعتناء بالوثائق منها (4) ولاحظ فيها يتعلق بالمصادر الفقهية أنها « أبعد المصادر على أن ترتجي منها فائدة (5) » وحذر كل التحذير من استعمالها من قبل المؤرخ

(1) انظر مجلة ستوديا اسلاميكا (Studia Islamica) رقم 3 ، سنة 1955 ص ص 93-116 .

(2) انظر خاصّة المقال المذكور ص 94 .

(3) مقدمة الكتاب مؤرخة بسنة 1942 . انظر خاصّة حصل « Les sources juridiques » ص ص 45-47 .

(4) نفس المصدر ، فصل : (Les documents d'archives) ص ص 19-23 . يرجع اندثار هذه الوثائق في الحضارة العربية الإسلامية خاصة إلى أسباب سياسية ودينية ص ص 20-21 .

(5) نفس المصدر ص 45 :  
« Les sources juridiques ici, sont celles dont l'historien a le moins à espérer »

في دراسته للحياة الاجتماعية (6) . وإن اعترف ببعض الفائدة لكتب الاختلاف وكتب الفتوى والبدع (7) .

ولقد وقع تعديل هذا الرأي الموهل في الإحتراز شيئا فشيئا بمقدار التعرف الحقيقي على هذه الكتب بمختلف أنواعها وعدل الأستاذ كاهان (Cahen) من اراء سوفاجي (Sauvaget) نفسه في تنقيحه لكتابه (8) وفي بعض أبحاثه الأخرى (9) .

واستغل الأستاذ الطالبي في مقال قصير نشر سنة 1956 بعض الفوائد العسكرية من فصل الجهاد من كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني (10) وتوصل فيما يتعلق بقيمة الكتاب بالنسبة للمؤرخ إلى رأي وسط ، ليس فيه تحمس لابرار الفوائد ولا تحقير مفرط لشأنها ، وإن كان في رأبي أميل شيئا ما إلى الزهد فيها لولا ندرة المعلومات في المصادر الأخرى (11) .

والحقيقة أن أحكامنا تبقى عامة جداً وربما لا تخلو من الخطأ إذا لم تشفع بتحليل شامل لبعض هذه الكتب والغوص فيها بحثا عما نريد إذ كثيرا ما لا نجد الشيء عندما نريده ونحرص في البحث عنه وربما نجده في المواضع

(6) نفس المصدر ص 46 :

« Ces ouvrages, on ne saurait trop insister là-dessus, méritent la plus grande méfiance de la part de l'historien ».

(7) نفس المصدر ص 46-47 .

(8) طبعة سنة 1961 من نفس الكتاب . انظر المقدمة والصول التي لمحتنا إليها من طبعة سوفاجي وما يقابلها في طبعة كاهان .

(9) انظر مثلا مقال

« Considérations sur l'utilisation du droit musulman par l'historien 3e congrès des études arabes, Naples 1967, pp. 239-247.

(10) TALBI : « Intérêt des oeuvres juridiques traitant de la guerre pour l'historien des armées médiévales ifrquiennes, cahiers de Tunisie n° 15, 3e trim. 1956. pp. 159-163.

(11) نفس المقال ص 163 .

التي لم نتوقع أن نجده فيها وفي بعض الأحيان بمحض الصدفة ، ولا لزوم بطبيعة الحال للتكلف وتقويل النصوص ما لم تقله .

ويبدو لأول وهلة أنه يمكن أن نجد في الكتب الدينية بعض هذه المسائل لأن الدين الإسلامي يعتبر عادة دينا ودنيا ، عقيدة وشريعة ... والكتب الفقهية تهتم بالعبادات والمعاملات في نفس الوقت ... ونجد في الفقه الإسلامي ما يمت بصلة إلى ما يسمى الآن قانون الأحوال الشخصية والقانون التجاري والقانون الجزائي والقانون الجنائي والقانون الدولي ...

ولعله يستحسن أيضا أن نشير إلى أن المذاهب الإسلامية تتفق في المبادئ الكبرى ولكنها قد تختلف في بعض الجزئيات ، وقد لا تكون هذه الاختلافات عديمة الصلة بواقع الحياة ومؤثراتها المختلفة وربما تكون دراسة العلم الإسلامي الذي يسمى بالخلافات (12) مفيدا في هذا الصدد . وقد أشار الأستاذ برانشفيك (Brunschvig) إلى شيء من هذا - في مقال له بعنوان : « إعتبارات إجتماعية في الفقه الإسلامي القديم » (13) . وحاول تتبع الواقع الإجتماعي الذي قد يكون وراء بعض الاختلافات الفقهية - وخاصة بين المذهب المالكي الحجازي والمذهب الحنفي العراقي - المتعلقة خاصة ببعض المسائل مثل : سن البلوغ والحضانة وتحديد مقدار الصداق ومنزلة المرأة ومنزلة العبد والعاقلة (14) والقسامة (15) والشفعة (16) وشرط الكفاءة أو التكافؤ بين الزوجين ...

(12) انظر في التعريف بهذا العلم مقدمة ابن خلدون (ط بيروت 1961) ص 818-820 .

(13) مجلة ستوديا اسلاميكا رقم 3 سنة 1955 ص ص 61-73 :  
« Considérations sociologiques sur le droit musulman ancien » .

(14) هي قرابة الإنسان من قبل الأب ويشتركون في الدية على القاتل .

(15) يعرفها ابن عرفة في حدوده (ط. تونس 1350) بأنها « حلف خمسين يمينا أو جزءها على إثبات الدم » ص 484 .

(16) يحددها ابن عرفة في الحدود بأنها « استحقاق شريك أخذ مبيع شريكه بشئنه (ص 356) .

وبصفة عامة يمكن أن نقول إن مختلف الدراسات التاريخية الجادة الذي ظهرت في السنوات الأخيرة قد أبرزت أهمية الاعتماد على مثل هذه المصنفات (17).

## (2) المذهب المالكي والواقعية :

بالإضافة إلى الخلافات المتعلقة ببعض الفروع الفقهية يسكن أيضا أن نشير إلى بعض الاختلافات في الأصول بين بعض المذاهب الفقهية وإلى ما يمكن أن يكون وراءها من نتائج تهم موضوعنا .

وأريد أن أشير بصفة خاصة إلى ما يوجد في المذهب المالكي من عناصر أصولية تربطه بالواقع فمن المعروف عن مالك مثلاً أنه كان لا يريد الإيغال في الافتراضات النظرية الصرفة ويحرص كل الحرص على التشبث بما يقع فحسب والبحث في حلول له : « سأل رجل عراقي عن رجل وطىء دجاجة ميتة فخرجت منها بيضة فأفقت البيضة عنده عن فرخ يأكله ؟ فقال له مالك : سل عما يكون ودع ما لا يكون ! » . وسأله آخر عن نحوه هذا فلم يجبه . فقال له : « لم لا تجيبني ؟ » . فقال : لو سألت عما تنتفع به أجبتك (18) .

ويروى عن تلميذه ابن القاسم قوله : « كان مالك لا يكاد يجيب وكان أصحابه يحتالون أن يجيء الرجل بالمسألة التي يحبون أن يعلموها كما أنها مسألة بلوى (أي ابتلي بها في الحياة ووقعت حقا) فيجيب فيها (19) .

وقد اشتهر تلميذه الإفريقي أسد بن القرات - ذو الميول الحنفية - بذلك . روي عنه قوله : « كان ابن القاسم وغيره يجعلوني أسأل مالكا فإذا أجابني

(17) انظر بصفة عامة الدراسات المتعلقة بالمغرب الاسلامي والتي قام بها الأساتذة : برانشفيق . محمد الطالبي - روجي هادي إدريس - هشام جعيط - فرحات الدشراوي ....

(18) المدارك 1 : 150-151 (ط. باكير) .

(19) نفس المرجع ص 151 . وانظر بصفة عامة في هذه المعاني باب المدارك : « تحريره في العلم والفتايا والحديث وورعه فيه وإنصافه » (1 : 144-152) .

قالوا لي : قل له : فإن كان كذا وكذا .. ! فضايق علي يوما وقال : هذه سلسلة  
إبنة سلسلة : إن كان كذا ، كان كذا .. « إن أردت هذا فعليك  
بالعراق (20) » .

ولا شك أن هذه المبادئ قد استقرت عند فقهاء المالكية من بعد وسترسخ  
هذه المبادئ في رأيي بعض الأصول الأخرى التي آشتهر بها المذهب المالكي  
مثل « عمل أهل المدينة (21) » الذي يقول به مالك . ولئن كان هذا المبدأ  
خاصا بالمدينة فإنه سيهيئ العقول لنوع من المراعاة للظروف الخاصة بكل  
اقليم فاشتهرت في المذهب المالكي بعض الأصول الفرعية مثل : العرف –  
العمل – العادة ... (22) .

ولعل ظاهرة أخرى تدل على هذا التشبث بالواقع هو عدم ازدهار  
التأليف في كتب الحيل في الفقه المالكي ، وقد رأى شاخت (Schach) في  
كتب الحيل أبرز ظاهرة لهذا الإنفصام بين النظريات والواقع (23) إذ الركون  
إلى الحيل الشرعية هو نوع من التفصي من القوانين باستعمال بعض التخرجات  
وبعض التخيلات البارة ولكن « الحيل » قد تدل أيضا في بعض الأحيان  
على هذا الواقع المتشعب الذي فاض على القوانين المتجمدة ولقد صدق سوفاجي  
(Sauvaget) عندما قال : « إن أبعد التحليلات عن الواقعية لا يمكن إهمالها

(20) تراجع اغلبية (ط الطالبلي) ص 53-54 ومدارك القاضي عياض (ط. بكير) 2 : 466 .

(21) انظر في الدفاع عن ذلك مقدمة مدارك القاضي عياض ومقال برانشفيق :  
« Polémiques autour du rite de Malik » Andalus 1950, fas. 2,  
pp. 377-435.

(22) أنظر في ذلك خاصة جاك بارك

(J. BERQUE) : Essai sur la méthode juridique maghrébine

وميمو Préface du Recueil : (Millot) de Jurisprudence Chérifienne

(23) انظر مقال حيل في الطبعة الجديدة من درثرة المعارف الاسلامية ج III خاصة ص 529 .  
وانظر أيضا مقال برانشفيق : De la fiction légale dans l'Islam médiéval (مجلة  
ستوديا اسلاميكا رقم 32 سنة 1970 ص ص 41-51) وقد حلل فيه نظريتي الفقيه الشافعي  
عز الدين بن عبد السلام والفقيه المالكي المصري شهاب الدين القرافي في الحيل .

لأن إتجاهاتها ومطالباتها هي على الأقل واقعية (24) . لكن يجب أن نعرف أن التأليف في الحيل هي بصفة عامة - في حد ذاتها - إفرازات عقلية نظرية تخيلية بعيدة عن الواقع .

### (3) كتب الفتاوي في المذهب المالكي :

وبالعكس من كتب الحيل فإن التأليف في كتب الفتاوي قد كثر بصفة عامة في المذهب المالكي لأن الفتاوي لها في الغالب اتصال وثيق بالواقع فهي مبدئياً أجوبة عن مشاكل - أو مسائل كما يقولون - حدثت بالفعل (25) .

ولقد أشار بعض الدارسين إلى إمكانية تخيل بعض المسائل (26) فنقع فيما لمحا إليه منذ حين من الافتراض الذي إستنكره ملك ... وهذا المشكل مرتبط بطبيعة الحال إلى حد كبير بشخصية الفقيه أو المفتي وطبعه وميولاته والافتراض الصرف مستبعد عند المالكية المتمسكين بسنة أمامهم في التثبت بالواقع فهذا البرزلي مثلاً يستنكر ذلك على ابن علوان وهو أحد مفتي تونس « وكان معروفاً بالتحيل » كما يقول البرزلي ، ويعلق على تصرفه بعد ذكر أمثلة من فتاويه : « والصواب أنه لا يجوز لأنه من باب تلقين الخصوم وهو قاذح في العدالة على ما نص عليه في طرر ابن عات (27) وغيره وهذه الطريقة معروفة لأبي حنيفة الإمام المشهور (28) » .

(24) « L'étude des exposés même les plus irréalistes ne peut être négligée, car ils expriment des tendances, des revendications qui sont, elles, réelles » Introduction (ed. Cahen), p. 50.

(25) عن الافتاء بصفة عامة انظر إميل تيان : Histoire de l'organisation judiciaire 339-323 : I

ودائرة المعارف (ط. الجديدة) II : 886-887 (والش : J.R. Walsh)

(26) Introduction (ط. كاهان) ص 50 .

(27) هو أبو عمر أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات الشاطبي الأندلسي (1148/542 - 1212/609) . انظر عنه الزركلي : الأعلام I : 251 والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (ط. ابن شريفة) ج I : 556-562 .

(28) نوازل البرزلي . مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم 4851 ج I ورقة 237 ط.

وأظن أنه يستحسن في هذا الصدد البداية بدراسة المصطلحات المستعملة في كتب الفتاوي ، فعندما نجد مثلاً : « سئل فلان عن كذا وكذا ... » فقد تكون المسألة المسؤول عنها وقعت وربما لم تقع ويتشعب الأمر لأنه مرتبط أيضاً وأساساً بالسائل الذي تتنوع شخصيته أكثر وتخفى عنا في الغالب نواياه ومقاصده . هذا بالإضافة إلى أن هذه الأسئلة تقع في الكثير من الأحيان في مجالس الدرس فتصبح نوعاً من الرياضة الفكرية بالنسبة للشيخ وخاصة للطلبة ، يقع بها الإستعداد للإمتحان ولمجابهة مشاكل الواقع الذي قد يتجاوز في بعض الأحيان آفراضات الفكر وتركيبات الخيال (29) وقديماً نسب لعمر بن عبد العزيز قوله : « يستحدث للناس من التشاريع بقدر ما يخترعون من الشرور » ! ، وفي الكثير من الأحيان نجد الحيل الشرعية نفسها — كما لمحنا إلى ذلك آنفاً — نوعاً من تطويع الحلول الفقهية للملاءمة الواقع المتغير المحير (30) .

لكن يجب أن نضيف إلى ذلك أنه كثيراً ما نجد في نوازل البرزلي مثلاً مصطلحات أخرى تدل أكثر على التشبث بالواقع مثل قوله : نزلت نازلة — وقعت — حدثت ... وسنرى ذلك بوضوح في الكثير من الأمثلة التي سندكرها بعد حين من نوازل البرزلي . ولعل هذا الحرص على الإلتصاق بالواقع هو الذي جعله يسمي كتابه : « جامع الأحكام لما نزل من القضايا بالفتن والحكام » (31) ويسمى في تراجم البرزلي أو على نسخ مخطوطاته أو في فهارس المكتبات بأسماء مختلفة وموجزه منها : النوازل — الأحكام — الفتاوي ...

(29) كتب النوازل مليئة بالأمثلة على ذلك .

(30) جاء في نوازل البرزلي ( : 237 و 237 ظ ) في سياق الحديث عن إباحة النظر للمعورة عند الضرورة : « وعليه ما حكى ابن علوان — أحد مفتي تونس — أنه أتته امرأة تزوجها أندلسي وأساء عشرتها وعسر عليها التخلص منه ، فقال لها : ادعي أن داخل دبره برص فادعت ذلك عليه ، فحكم عليه بأن ينظر في ذلك المحل ، فلما رأى ذلك طلقها » .

(31) انظر بداية الجزء الأول من نوازل البرزلي .



يوجد إذن ترابط متين بين الفتوى والقضاء حسب ما يبدو من عنوان كتاب البرزلي ومن مضمونه ولئن تحسر سوفاجي (Sauvaget) على ذهاب سجلات القضاء في الحضارة العربية الإسلامية (32) فإننا نجد في الحقيقة في كتب الفتاوي مجموعة كبرى منها بدون أن ترتبط أساسا بها إذ هي تتجاوز مجرد القضايا التي فصل فيها القضاء وبذلك يكتمل ذلك الجانب الذي رأي شارني (Charnay) مثلا أنه ينفلت من أيدي الباحث في الحياة الاجتماعية من خلال المسائل القضائية لأن الكثير من القضايا تفصل بصور مختلفة قبل أن تصل أمام القاضي (33). والإفتاء في الإسلام هو نوع من الإستشارة القانونية التي تسمح بفض الكثير من المشاكل من تلقاء نفس الشخص عندما تظهر الحقيقة أو بعضها. فكتب الفتاوي أغزر في تصوير الواقع واشمل من سجلات القضاء لو وصلتنا، ولئن تجاوزتها في القيمة مجاميع القضاء المعاصرة فذلك لكثرتها ودقتها.

ولعل كتب الفتاوي المتأخرة تكون أفيد فيما يتعلق بهذه النواحي التي نلمح إليها لأنها تكون نوعا من المجاميع تسمح باستيعاب فترات زمنية طويلة ومقارنة حلول مختلفة، في بعض الأحيان، لنفس المشاكل.

ولعل من أبرز كتب الفتاوي المغربية التي تستحق العناية ثلاثة مجاميع من القرن التاسع الهجري يمكن أن نستخرج منها فتاوي الكثير من أعلام الفكر المالكي المتقدمين وهذه المجاميع هي :

(32) Introduction ص 21 و(ط. كاهان) ص 18.

(33) انظر كتابه الهام :

« La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la 1ère moitié du XXe siècle ».

ومقاله :

« Sur une méthode de sociologie juridique : exploitation de la jurisprudence » Annles 1965, n° 3, pp. 513-527 et n° 4 pp. 734-754.

## (1) جامع الأحكام للبرزلي (توفي حوالي سنة 1438/841) :

وقد عرف الأستاذ الهيلة بالبرزلي وبكتابه في النشرة العلمية للكلية الزيتونية (عدد 1 - السنة الأولى 1391/1971 - ص ص 169-233) تعريفا عاما هاما . وسنهتم " بجانب خاص من النوازل بعد حين . وقد حلل الأستاذ روجي هادي إدريس بعض فتاويه المتعلقة بالتجارة البحرية والقراض في إفريقية (34) واعتمده الأستاذ إدريس أيضا في أطروحته عن العصر الصنهاجي مثلما إعتمده الأستاذ برانشفيق في أطروحته عن العصر الحفصي .

واستخلص الأستاذ الطيب العنابي بعض «التف التاريخية عن عصر البرزلي من خلال نوازله بالإعتماد على إختصار أبي سعيد البجائي (34) مكرر » . ويهتم بعض الأساتذة بتحقيق بعض فصوله ودراستها وهو محتاج للمزيد من العناية من قبل باحثين عديدين لضخامة مادته وغزارتها .

## (2) نوازل المازوني يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي (35) قاضي مازونة (36) (توفي سنة 1478/883 بتلمسان) :

يقول عنه التنبكتي : « الف نوازله المشهورة المفيدة في فتاوي المتأخرين أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين (37) » . واسم نوازله « الدرر المكنونة في نوازل مازونة » ومنه نسخة خطية بالمكتبة العامة

(34) « Commerce maritime et kirad en berbérie orientale d'après un recueil de Fetwa médiévale », J.E.S.H.O. IV, 1961, pp. 225-239.

(34) مكرر انظر مجلة الهداية التونسية السنة الثانية ، جانفي 1975 ص 40 وجويلية 1975 ص 130 .

(35) انظر نيل الإبتهاج (ط. القاهرة) ص 359 - تعريف الخلف للحنفاوي I : 186-187 نويهض : معجم أعلام الجزائر 204 .

(36) بلدة بين وادي شلف والبحر المتوسط في الجزائر وهي أيضا بلدة في ولاية سيدي بوزيد بتونس.

(37) نيل الإبتهاج ص 359 .

بالجزائر تحمل رقم 1335 وقد استغل الأستاذ بارك (Berque) بعض ما ورد فيها في مقال قصير بعنوان : « En lisant les Nawazil Mazouna » (38) واستنتج منها بعض الفوائد المتعلقة بعلم إجتماع المغرب الإسلامي .

(3) المعيار لأحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني الفاسي (1431/834 - 1508/914) (39) :

و كتابه الذي يهمننا هو « المعيار المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » وقد طبع طبعة حجرية في فاس أو آخر القرن الفارط في 12 جزءا . وقد استمد الونشريسي فتاويه كما يقول التنبكتي من نوازل ماؤونه ونوازل البرزلي « وأضاف إليهما ما تيسر من فتاوى أهل فاس والأندلس (40) » . وقد حلل هذه الفتاوى تحليلا عاما إيميل آمار (E. Amar) في نشرة Archives marocaines مجلد XII ومجلد XIII (باريس 1908 - 1909) ص ص 522 - 536

واعتمد هذه الفتاوى خاصة برانشفيق وإدريس في أطروحتيهما ودرس إدريس أيضا 245 فتوى متعلقة بالنكاح من ج III وج IV من المعيار في مقال بعنوان : « Le mariage en occident musulman d'après un choix de Fetwa médiévales extraites du Micyar d'al-wanšariši » (41) .

وقدم الأستاذ محمد حسن موسى مدخلا « لدراسة المجتمع الفلاحي المغربي - الأندلسي الوسيط من خلال نوازل المعيار للونشريسي (قسم المزارعة والمغارة والمساقاة والشركة) (42) » .

(38) مجلة ستوديا اسلاميكا رقم 32 سنة 1970 ص ص 31-39 .

(39) انظر عن مصادر ترجمته معجم المؤلفين لكحالة 2 : 205 ومعجم اعلام الجزائر انويهيض ص 50 .

(40) نيل الابتهاج ص 359 وص 88 .

(41) مجلة ستوديا اسلاميكا رقم 32 سنة 1970 ص ص 157-167 .

(42) قدم في نطاق شهادة الكفاءة في البحث بالجامعة التونسية سنة 1975 ، ومنه نسخة مرفوعة بالمكتبة الوطنية بتونس .

ويجب أن نلاحظ في خاتمة هذا القسم أن كتب الفتاوي تتبع في الغالب تبويبات كتب الفقه بصفة عامة ففيها إذن فوائد كتب الفقه والزيادة — من النواحي التي تهمننا — إذ هي تضيف خاصة نوعاً من الإبتعاد عن المطلق والإنحصار في زمان ما ومكان ما فحتى إذا ما إبتدأ البرزلي مثلاً في بداية بعض الأبواب الهامة ببعض التحديدات الفقهية النظرية فإنه لا يطيل في ذلك وسرعان ما يستدرك هو نفسه فيقول مثلاً : « وفيما ذكرناه كفاية فنرجع إلى ما رسمناه من النوازل فمنها ... (43) » وتصرح كتب الفقه في الغالب ، على الأقل باسم المفتي . ويبن البرزلي مثلاً من بداية تأليفه أنه سيغرف بصفة خاصة من نوازل ابن رشد (44) وابن الحاج (45) وعز الدين بن عبد السلام (46) وكثيراً ما يصرح بأن النازلة وقعت بتونس أو بصفاقس أو بغرناطة أو بالجريد ... وتوجد عنده حساسية واضحة بتغير الحال فكلمات العادة والعمل والعرف والبدعة ... كثيرة التردد في كتابه وهو يحرص كل الحرص على الأخذ مباشرة من المفتين القريبين منه وخاصة من شيوخه ابن عرفة (47) إذ هو يرى أن في هذا الميدان — أي ميدان الفتوى — يجب أن نحذر من الكتب — خاصة بالنسبة لغير الفطنين إذ الكتاب يجمد الرأي في وضعية ما مرتبطه بظروف خاصة والحياة دائمة التجدد فهو يقول في أوائل نوازله : « إذا عدم الإنسان من يفتيه فليرجع لما في الكتب للضرورة . والعمل بما في الكتب لمن لا يدري لا ينجو فيه من الخطأ لوجوه منها : أن النازلة

(43) بداية كتاب الأيمان — ورقة 172 و . وانظر أيضاً ورقة 210 و . « ... وفيما ذكرناه كفاية فنرجع إلى ما رسمناه ... » .

(44) المقصود به ابن رشد ألجد (1158/450-1126/520) . انظر عن مصادر ترجمته خاصة معجم كحالة 8 : 228 . وقد اختصر هذه النوازل ابن عبد الرقيق قاضي تونس (ت. 733هـ) .

(45) المقصود به محمد بن أحمد بن خلف التجيبي (1066/458-1134/529) . انظر عن مصادر ترجمته اعلام الزركلي 6 : 210 .

(46) فقيه شافعي تولى قضاء الشام والقاهرة وأثر في كثير من فقهاء المالكية ، (1181/577-1262/660) . نظر عن مصادرة خاصة معجم كحالة 5 : 249 .

(47) انظر عنه « رسالتان في المنطق » (من تحقيقنا — ط. تونس 1976) خاصة ص 43 تعليق رقم 1 ويحيل عليه البرزلي في نوازله في الغالب بقوله « شيخنا الإمام » .

لا نجيب له مثل نص الكتاب إلا نادرا ، وأكثر ما نجيب شبيهة لها ، وذلك الشبه يغلط الناس فيكون بينهما شيء يغير المعنى ويخرجها عن شبهها ، فمن لا علم عنده أو لا علم له بالأصول التي بها قال القوم عرج عن الأصل ويقع في الخطأ وهو لا يعلم ... (48) » .

## II - نوازل البرزلي وقيمتها الاجتماعية :

يجب أن ننبه في بداية هذا القسم أننا إعتدنا أساسا الجزء الأول من نوازل البرزلي الحامل لرقم 4851 بالمكتبة الوطنية بتونس وعليه نحيل في الغالب ونرجو أن نواصل هذا العمل بالنسبة للأجزاء الأخرى في فرصة أخرى . وفي هذا الجزء المعتمد 638 صفحة من الحجم الكبير ويمثل تقريبا ثلث نوازل البرزلي .

والحقيقة أن التلميحات الاجتماعية التي يمكن أن نجدها في نوازل البرزلي متنوعة جدا وتمسّ في بعض الأحيان بمشاكل لها خصائص أخرى هامة مثل المشاكل الاقتصادية أو الدينية أو الثقافية ... لذا رأينا أن نحصر الأمر الآن في ثلاثة عناصر رئيسية فحسب هي : صلات الفتيات الاجتماعية ببعضها البعض - تدهور القيم الدينية على المستوى الاجتماعي - ظاهرة إشتداد التصوف المغربي في تلك الفترة .

### (1) الصلات بين الفتيات الاجتماعية :

#### أ) صلات المسلمين بأهل الذمة :

لا نريد هنا أن نطرح مسألة صلات المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى وخاصة أهل الذمة منهم لأن ذلك يرتبط بمسائل دينية

وعقائدية متشعبة ليس هنا مجال إثارتها لكن نريد فقط أن نلمح في هذا الصدد إلى بعض الجوانب ذات الدلالات الاجتماعية الواضحة .

يلاحظ البرزلي مثلاً فيما يتعلق بزي النصارى واليهود وخاصة زي النصرانيات واليهوديات : « والعادة عندنا بتونس أن نساء النصارى يستترن كالمسلمات غالباً من غير علامة ، ومنهن من يلتزم زيّ النصارى . واليهوديات لهن علامة المشي بالقرق (49) أو حافية . وعلامة الذكور من اليهود الشكلة الصفراء فوق الاحرام (50) لا تحته فإنه قد يشكّل إذا عطى بظهره . وأما النصارى فلهم زيّ على رؤوسهم (51) يلزمونه وقد كان بعضهم تزيى على رأسه بزي المسلمين فألزمهم السلطان زواله ... (52) » .

ونص البرزلي هذا فضلاً على أنه يلمح إلى حجاب المسلمة وهو أمر معروف لدينا فإنه يفيدنا بنوع من التمييز بين الذكور والإناث من أهل الذمة في معاملة المسلمين لهم فاللباس المميز لأهل الذمة مفروض خاصة على الذكور (53) ونلاحظ أيضاً شغف المرأة خاصة بالتقليد وتقليد الذميات للمسلمات يدل بدون شك من الناحية الاجتماعية على موقف القوة الذي كان للمسلمين إذ « المغلوب — كما يقول ابن خلدون — مولع أبداً بالإقتداء بالغالب في شعاره وزينه ونحلته وسائر أحواله وعوائده (54) » .

(49) لفظة لاطينية الأصل Cortex كانت مستعملة في اسبانيا والمغرب ومالطة وتعنى حذاء له نعل من الخفاف . انظر : Dozy : II Supplément : 334

(50) انظر ادريس : II Berbérie : 767

(51) انظر المصادر التي بحثت في زي أهل الذمة في مقال ذمة الذي ذكرناه أسفله تعليق رقم 53 .

(52) البرزلي : نوازل 1 : 171 ط — انظر عن الازياء المميزة لليهود والنصارى ادريس : II Berbérie : 763

(53) انظر عن أهل الذمة بصفة عامة مقال « ذمة » بدائرة المعارف الاسلامية (ط. الجديدة) 2 : 234-238 (كاهان) وانظر ادريس Berbérie ج 2 ص 757 وبرانشفيق ... ج 1 فصل 7 .

(54) المقدمة ص 258-259 .

وهذا يقابل ما لاحظته ابن خلدون نفسه من حال المسلمين في الأندلس في عهده (55) « فإنك تجدهم يشبهون بهم (أمم الجلالة) في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الإستيلاء والأمر لله (56) » .

ولقد لاحظنا - في البلاد التونسية - إلى عهد قريب منا ، وربما إلى الآن في بعض القرى ، مسامرة اليهود - حتى الذكور منهم - للمسلمين في لباسهم وعوائدهم وربما في عباداتهم أيضا (57) . وقد يعلل ذلك عبر التاريخ بتعليلات مختلفة ليس هنا مجال الخوض فيها .

وفيما يتعلق أيضا بصراع القوى بين المسلمين وأهل الذمة يمكن أن نشير أيضا إلى القصة التي أثّرت فيما يتعلق بسكنى النصراني فوق المسلم ، قال البرزلي : « ووقعت مسألتان بتونس ، أحدهما : بنى النصراني منزرا حتى علا على بعض أجزاء مدرسة التوفيق (58) فكلمت في ذلك شيخنا الفقيه الإمام رحمه الله (أي ابن عرفة) وذكرت له ما تقدم للطرطوشي (يقصد ما لمح إليه آنفا من بحث الطرطوشي في سراج الملوك عن الشافعية في الحديث النبوي (يعلو ولا يعلى عليه وأن في مساواتهم قولين) (59) فنظره وقال ذكره عن الشافعية . فقلت له : ليس في المذهب (أي في المذهب المالكي) ما يخالفه فتغافل عن ذلك فيحتمل أن يكون أنه رأى أنه لا يسعف بهدمه لكونهم بمكنة من السلطان أو راه أمرا محتملا فترك تغييره . ومنه أيضا أنهم زادوا في كنيستهم

(55) زار ابن خلدون أسبانيا سنة 1364/765 (انظر خاصة ابن خلدون : التعريف ...) .

(56) المقدمة ص 259 .

(57) انظر مثالا عن ذلك ، ادريس : II Berbérie : 766

(58) مدرسة كانت بمعقل الزعيم ملاصقة لجامع الهواء درس بها ابن عرفة وقد استسها الأميرة عطف زوجة أبي زكرياء الحفصي . انظر برانشفيق : Berbérie (فهرس) .

(59) انظر الطرطوشي : سراج الملوك : الباب الحادي والخمسون في أحكام أهل الذمة ص ص 135-138 (ط. ب لاق) .

وعلوها كثيرا وذلك محدث فلما أن يكون أيضا في عهدهم أو بنوها حصنا لإختلاف الدول خشية العامة أو وقع التغافل عنهم . والمسألة الأخرى : جدد بعض النصارى كنيسة في فندقهم وعلا عليها شيء يشبه الصومعة فطولبوا بذلك فأتوا بكتاب العهد فوجد فيه أنه لا يحال بينهم أن يبنوا فيه بيتا لمتعبداتهم واعتذروا عن رفع البناء الذي يشبه الصومعة انه للضوء . فبعث القاضي من نظره فإن كان فيه ناقوس غيرَه فوجدوه للضوء كما ذكروه ، لأن إظهاره كإظهار شرب الخمر ، فيؤدبون كما قال في المدونة . ومن هذا مسألة أخرى وهو إذا اكرى الذمي علويا أو اشتراه والاسفل للمسلم ، فأجازه شيخنا الفقيه واحتج بسكنى أبى أيوب (60) فوق النبي (ص) (61) .

وهذه الأمثلة تدل على توترات إجتماعية ناتجة عن بعض العقائد الدينية ، ومن الطريف أن نلاحظ مواقف الفقهاء من ذلك واختلافاتهم نتيجة إختلاف في التأويلات الدينية وربما نتيجة إختلافات في ملائمة الواقع السياسي والإجتماعي ، وإلى هذا يلمح البرزلي صراحة عندما أفترض : « فيحتمل أن يكون (ابن عرفة) أنه رأى أنه لا يسعفه بهدمه لكونهم بمكنة من السلطان » . ونحن نعلم أن بعض الملوك الحفصيين كانوا متزوجين بنساء نصرانيات (62) وأن بعض الأحياء كانت فيها جاليات نصرانية هامة وقوية التأثير في المجتمع (63) .

### ب) نظرة بعض الشعوب والمجموعات لبعضها بعضا :

ولعل من أجمع النصوص التي أوردها البرزلي والتي تدل على نظرة بعض الفئات لبعضها بعضا وحتى الصور التي كانت شائعة لبعض الأمم عند

(60) هو أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري المدني صحابي شهد بدرًا والعقبة ، نزل عنده الرسول لما هاجر إلى المدينة . توفي سنة 671/51 . انظر طبقات أبي العرب (ط. تونس) ص 87 تعليق رقم 5 .

(61) النوازل 1 : 164 ط .

(62) مثلا كانت أم أبي عبد الله المستنصر واسمها عطف مسيحية وكذلك كانت أم الواثق ضرب وأم أبي عمرو عثمان ريم... انظر Brunschling : Berberie ج 1 ص 39-71-240 .

(63) انظر برانشفيق : Berberie ج 1 ص 430 .



أمم أخرى قوله : « وحكى ابن راشد في المرقبة العليا (64) في تفسير الرؤيا أنه كان في مجلس شهاب الدين القرافي (65) يذكر عن بعض الحكماء أن أربعا أكلت أربعا فأورثتها أربعا : أكلت النصارى لحم الخنزير فأورثتها عدم الغيرة وأكلت الفرس لحم الخيل فأورثتها الغلظة وقلة الرحمة وأكلت العرب لحوم الإبل فأورثتها الحقد والكرم وأكلت العجم والزنج لحوم القرود فأورثتها كثرة الطرب (66) . قال فذكر بعض المصريين في مجلسه فقال : يا مولاي ، وأكل المغاربة لحوم الكلاب فأورثتها كثرة الهرش (67) . فقام طالب أندلسي في المجلس فقال : وأكل أهل مصر لحوم الفئران فأورثتها الفسق والخلاعة . فقال له المصري : رحمك الله ، أفكل أهل مصر يفعل هذا ؟ (68) . »

(64) في نص البرزلي : « ابن رشد » ، وهو خطأ واضح لأنه لا يمكن لابن رشد حتى الحفيد المتوفي سنة 1197/595 أن يروى عن القرافي المولود سنة 1228/626 والمتوفي سنة 1285/684 هذا بالإضافة إلى أننا وجدنا نسخة من كتاب المرقبة العليا في تعبير الرؤيا ووجدنا النص الذي يلحق به البرزلي (انظر أسفله تعليق رقم 68) والكتاب لمحمد بن عبد الله بن راشد القفصى (توفي حوالي سنة 1336/736) الذي نعلم أنه سافر للقاهرة والإسكندرية واتصل خاصة بشهاب الدين القرافي ... انظر عن ابن راشد معجم كحالة 10 : 213-214 وخاصة مقال الشيخ محمد الشاذلي النيفر عن ابن راشد القفصى المنشور في دراسات في اللغة والحضارة (ملتقى ابن منظور سنة 1974) ص ص 89-120 .

(65) هنا سهو آخر من البرزلي الذي ينقل من حفظه كما سيقول بعد حين - وفي المرقبة العليا أن ابن راشد كان في مجلس أمير الإسكندرية وهذا يتلاءم مع بقية النص وخاصة مع ما أورده البرزلي نفسه من قول المصري : « يا مولاي » .

(66) انظر تحليل ابن خلدون « للخفة والطيش وكثرة الطرب » الموجودة في « خلق السودان » « بآثر الهواء في اخلاق البشر » ، المقدمة ص 148 .

(67) أي الخصام والقتال .

(68) نوازل 1 : 158ظ . ومخطوط المكتبة الوطنية من المرقبة العليا رقم 21123 ، ورقة 91ظ . (من الباب التاسع في المأكول والمشروب) : ... النوع وهي اللحوم وهي أصناف . الإبل : لحوم الإبل ، وهي تدل على مال يصيبه من عدو قوي : قلت : وربما دل أكل لحومها على الحقد والكرم أكلها يصير طبعه كطبع الإبل وقد قال الحكماء : أكل أربعة فأفادها أربعة : أكل العرب لحوم الإبل فأفادتها الحقد والكرم ، وأكلت السودان القرود فأفادتها الرقص والطرب ، وأكل الروم الخنازير فأفادتها الخسنة وقلة الغيرة والحرص على الدنيا ، وأكلت الترك لحم الخيل فأفادتها القساوة . وقد حضرت عند أمير الإسكندرية فجرى ذكر هذا فجاء رجل من أهل الإسكندرية ينكث عن المغاربة فقال : يا مولاي ! بل هي خمسة ! قال : « وما الخامس ؟ » قال : « وأكلت المغاربة الكلاب فأفادها الحسد وسوء الخلق ! » . فقام بعض الأندلسيين فقال : « يا مولاي ! بل هي ستة ! » قال : « وما السادس ؟ » . قال : « أكل المصريون الفئران فأفادتها السرقة والخيانة » . فقال : « يا أخي ! المصريون كلهم يأكلون الفئران ؟ » فقال : « والمغاربة كلهم يأكلون الكلاب ؟ وجوابك عن هذا ، جوابي عن الآخر ! » .

ولاشك أن لهذه النادرة أو القصة قيمة إجتماعية وربما اتنوغرافية ويبدو أن بدايتها كانت متداولة بعض الشيء إذ هو ينسبها لبعض الحكماء ، والأطرف هو النسج الدائم على منوالها مثل ما فعل المصري في المجلس وإجابة المغربي الأندلسي له أو ما أضافه البرزلي بعد ذلك من روايته الخاصة إذ قال : « قلت نقلت هذا من حفطي كما فعلت هنا لبعض التونسيين فزادني عن بعض فقهاؤها فقال : وأكل أهل إفريقية لحوم الدجاج فأورثها الذل والإستكانة . وزاد بعضهم : وأكل بوادي إفريقية لحوم البقر فأورثها الجهل والثيارة (69) وأكل عامة أهلها لحوم الغنم فأورثها العافية واعتدال الأحوال ، والله أعلم (70) » .

تلك افرازات لعقليات الشعوب ولاشك أن لها بعض الصلات بالواقع . وأريد الآن أن ندقق النظر في جانب منها فحسب يتعلق ببوادي إفريقية وأعرابها وما اشتهروا به من فتك وسلب وانتفاضات وما عاناه من ذلك عامة الناس وخاصة أهل المدن الذين أورثهم « أكل لحوم الأغنام » على حد هذا القول « العافية واعتدال الأحوال » أو أورثتهم سكنى المدن والتحصن بأسوارها وشرطتها الإستكانة وإخلاق النساء كما جاء في تحليلات ابن خلدون (71) .

### ج) المدينة والبادية أو موقف الفقهاء من الأعراب وأهل البوادي :

إن هذا الموضوع مترامي الأطراف وهو محتاج إلى دراسات متعددة للإلمام بجوانبه المختلفة وسنلاحظ هنا بعض الملاحظات الجزئية معتمدين

(69) أي الثورة والانتفاضات .

(70) نوازل 1 : 158 ط .

(71) انظر مثلا الباب 2 : فصل 5 من المقدمة : « في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر » : « والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في التعميم والترف ووكّلوا أمرهم في المدافعة ... واستناموا إلى الأسوار ... وتزلوا منزلة النساء والولدان ... » (ص 218) .

في ذلك على نوازل البرزلي ويمكن أن تعتمد للمقارنة نصوص أخرى متعددة (72) .

لاشك أن الصراع البدوي الحضري قديم والراجح أن هذا الصراع قد اتخذ أبعاداً جديدة أعمق وأعنف وأشمل بعد زحفة أعراب بني هلال وسليم على إفريقية ... والذي يبدو من مصادر مختلفة وخاصة من نوازل البرزلي أن الفقه حضري مطبوع بطابع المدينة ففتاوي الفقهاء في المشاكل التي لها صلة بالأعراب تتسم في الغالب بشيء من العنف ضدهم .

وقد ورد ذكر الأعراب والتشديد عليهم خاصة في باب الحراقة ، ومعنى الحراقة في الفقه ، حسب ما ينقل البرزلي عن شيخه ابن عرفة ، هو « أخذ مال محرم باذهاب عقل أو مقاتلة أو بإخافة سبيل (73) » ويضيف البرزلي بعد ذلك أن أحدهما « ما ذكر الله في كتابه ، القتل أو الصلب أو القطع من خلاف أو النفي (74) » ويجعل البرزلي « أعراب إفريقية » من المحاربين ، يقول في سياق حديثه عن أصناف المحاربين « ... قلت أو يكون من قوم يعرفون بالحراقة فيكون ذلك دليلاً عليها وقد وقعت في رجل من أعراب إفريقية راكباً على فرس أخذ يسيرا من الغزل في مسبخة مقرين (75) ، فأخذه صاحبها في باب خالد وبلغ به الخليفة فضرب عنقه لعلمه أنه من أعراب إفريقية وكلهم محاربون (76) » .

(72) انظر أمثلة من ذلك في استغلال الأستاذ باري نوازل مازونة (المقال المذكور أعلاه) واستنتاجه لبعض النتائج في هذا الموضوع واستعمال الأستاذ الهيلة لمعالم الإيمان للدباغ في مقاله « الزاوية وأثرها في المجتمع القيرواني بداية من منتصف القرن السابع إلى نهاية القرن الثامن هجري » (المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية سنة 1975 ص 97-131 وخاصة القسم المعنون : الزاوية ومواقفها من مشكلة الأعراب ص ص 110-127) .

(73) النوارل رقم 5851 ج 5 (حسب فهرسة المكتبة الوطنية وفي آخر المخطوط انه ج 4) : 237و .

(75) نفس الجزء من النوازل ورقة 238ظ .

(75) في الأحواز الجنوبية من العاصمة التونسية .

(76) نفس الجزء ورقة 238و-ظ . ونسخة رقم 12795 ورقة 205ظ .

ومن أكبر الدلائل على المشاكل والحياة غير الآمنة التي سببها الأعراب للسكان أن ابن عرفة اُفتى بإمكانية تقصير الصلاة بالنسبة للجيش عند الخوف من الأعراب قياساً على تقصيرها في صلاة الخوف (77) في حالة الحرب مع العدو . قال البرزلي : « وفي نوازل ابن الحاج اُفتى ابن سهل (78) بقصر الصلاة إذا كان الجيش مع أمير المسلمين محاصر الحصن العدو ... وكان شيخنا الإمام يقول : وكذا جيش إفريقية في هذا الوقت مع الأعراب فهو كالجيش في دار الحرب لقلة الأمن أيضا (79) » .

ولعل من أشهر فتاوى ابن عرفة في هذا الموضوع وأشدّها تحريضا على قتالهم وهي تدل في نفس الوقت على الرعب الذي نزل في نفوس الناس منهم ما جاء في نوازل البرزلي : « ونزلت مسألة وهي أن الأعراب نزلوا بتونس يريدون دخول الغابة لافساد كرومها على عادتهم الفاسدة للتضييق على المسلمين وخليفتهم ، فندب شيخنا الإمام رحمه الله الناس لقتالهم وذكر لهم قول مالك (80) وما روي في قتال المحاربين المخالفين على أهل الإسلام من الفضل ، وأراد أن يستعين بمشيخة الوقت فلم يسعفه بهذا محتجين بأن الناس ليس لهم بمدافعتهم طاقة إذ لم تكن لهم معرفة بالحروب مع تركب العرب عليهم في أكثر الأوقات مع ضعف المسلمين عن مدافعتهم . فأجاب شيخنا الإمام رحمه الله بأنهم لو كانوا على قلب واحد لغلبوهم ، واحتج بقتالهم في المحجر (81) وشدتهم فيه ، ولكن ضعف الإيمان حمل الناس

(77) انظر في التعريف بصلاة الخوف . كتب الفقه بصفة عامة مثلاً رسالة ابن أبي زيد ص 96 (ط) . (Bercher)

(78) الراجح أنه أبو الإصمغ عيسى بن سهل الأندلسي ، توفي بغرناطة سنة 1093/1468 ، وهو صاحب الإعلام بنوازل الأحكام الذي وصلتنا منه بعض النسخ الخطية . انظر خاصة الديباج ص 181-182 .

(79) نوازل 1 : 62 ط .

(80) يقصد قولاً استشهد به قبل ذلك بقليل وهو : « وقال مالك في إعراب قطعوا الطريق : جهادهم أحب إلي من جهاد الروم » (نوازل 5 : 239 ط) .

(81) لم نتيين الموقعة (؟) التي يلح إليها هنا .

على العجز على قتالهم ، إذ لم يقاتلهم إلا الدين ، وأهله قد قلوا في هذا الزمان (82) . والصواب متى كان في الإمام شجاعة وإقدام حتى يكون فيه لمن هرب أو جرح كخليفتنا اليوم نصره الله وأطال عمره (83) في خير وعافية ومتع المسلمين به ، ما اختاره شيخنا الإمام ، وقد قاتلهم وحده بارك الله فيه حتى غلبهم ... (84) » .

وفي هذا الصدد أيضا فإن ما يقترفه الأعراب من سلب للأموال والثروات ينزله ابن عرفة عادة في حكم الجائحة الطبيعية وتختلف الآراء نتيجة لذلك في الزكاة عليه أم لا (85) .

وبصفة عامة فإن أحكام الفقهاء تتميز بقسوتها على الأعراب ولم أر شيئا صدر عن الأعراب وتسامح فيه الفقهاء إلا غناهم ، جاء في نوازل البرزلي : « وجمهور العلماء يكرهون غناء الأعاجم ويجيزون غناء الأعراب (86) » وهذا التسامح له في الحقيقة أسبابه لأنه يقابل إستنكارهم لأنواع من الغناء الحضري شاعت في المدينة وارتبطت حتى ببعض مظاهر التدين والتصوف سنعود إليها بعد حين .

وشبيه بالأعراب ما يسمى عادة « أهل البادية » وقد يكون البعض منهم من الأعراب الذين استقروا شيئا ما بالأرض ، والتلميحات إليهم في نوازل البرزلي لا تخلو أيضا من بعض العنف فالفساد بينهم منتشر والعلم فيه قليل وهذه النقطة الثانية لا تستغرب فقد قال لنا ابن خلدون إن العلم مرتبط بالحواضر

(82) انظر أسفله : تدهور القيم الدينية .

(83) الراجح أن الخليفة المقصود هو أبو العباس أحمد أو ابنه أبو فارس عبد العزيز (انظر عنها برانشفيق : Berberie ج 1 .

(84) نوازل (رقم 4851) ج 5 : 240 ومخطوط رقم 12795 ورقة 207 ومقال الاستاذ الهيلة المذكور (أعلاه) ص 121 . وانظر أيضا فتوى أخرى لابن عرفة ضد الأعراب في نوازل مازونة ، مقال الاستاذ بارك المذكور (أعلاه) ص 32-33 .

(85) نوازل البرزلي 1 : 132 ط - 138 ط .

(86) نوازل 1 : 66 .

أساساً (87). جاء في نوازل البرزلي في غصون الحديث عما « يهدى للفقهاء والمفتين رجاء العون فهو رشوة » : قلت : ومنه ما يفعل في هذا الوقت من أخذ الجعائل على الفتوى في رد المطلقة ثلاثاً ونحوها من الرخص كما يفعله كثير من جهلة فقهاء البادية فلا يحل ولا يجوز باجماع (88) . فهل تكون هذه العادة معدومة أو أقل إنتشاراً في المدن ؟ لا أظن ذلك .

وشهادة أهل البادية فيها أيضاً أخذ ورد ولا يكفي فيها بالقوانين المتعارفة في الإسلام في الشهادة . قال البرزلي : « وفي الطرر (لابن عات) عند قوله تجوز شهادة أهل البادية ، حكى بعض الشيوخ المتأخرين من الثقات أن أهل البادية إذا شهدوا في حق لامرأة أو غيرها ولم يكن منهم عدل انه يستكثر منهم ويقضي بشهادتهم ، وشهادتهم في رؤية الهلال جائزة عند ابن القاسم (89) إذا كانوا عدولاً (90) » .

ويضيف البرزلي : « وسئل بعض المفتين من ثقات شيوخوا المتأخرين في القرى البعيدة على الثلاثين ميلاً أو الأربعين وفيها الثلاثون رجلاً أو الأربعون والأكثر وأقل ، وليس فيهم عدل مشهور بالعدالة ، فيهم مؤذنون وأئمة وقوم مسمون بالخير غير أن القضاة لا يعرفونهم بعدالة ولا يجدون من يعرفهم يجتمعون على الشهادة عندهم في الأملاك والديون والمهور والنكاح وغير ذلك ولا يخالف منهم أحد ، فهل تجوز شهادتهم ويقضي بها أم يتركون من غير أن ينظر في أمرهم ؟ (90) » ولئن مال جل الفقهاء لقبول هذه الشهادة فذلك للضرورة ، « ولولا ذلك ما جاز لهم بيع ولا تم لهم نكاح ولا عقد في شيء من الأشياء (90) » .

(87) انظر الباب السادس من المقدمة وخاصة الفصل الثالث منه : « في أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة » ص. ص 777-779 .

(88) نوازل 1 : 20 ط .

(89) من أشهر أصحاب مالك : توفي سنة 806/191 انظر عنه دائرة المعارف (ط. الجديدة) 3 : 840 (شاخت) .

(90) نوازل 1 : 264 و .

ويبدو أن هذا التشدد في الشهادة مرتبط بتدهور عام وجد في المدن أيضا (91) وجعل مقاييس الشهادة في الشريعة الإسلامية تتغير نتيجة لإنتشار الكذب والمجاملة (92) ففرض نوع من السلك الرسمي يقوم بدور الشهادة لم يسلم هو نفسه من الفساد والإنتقاد عليه (93) .

ولاشك أيضا أن البادية كانت في فقر مدقع فأنت ترى البرزلي إذا ما أراد ضرب مثال للفقر أخذ البدوي فيثير مثلا مسألة البدوي الذي عنده « كساء واحد ما يجد غيره هل يفرش طرفه للصلاة ... (94) » .

ولعله لنفس السبب نجد العادة عند البدو أنهم لا يسمون صداقهم في عقد الزواج « وهو معروف مقدر لا يُزاد لجمال ولا ينقص لقبح » كما قال البرزلي (95) .

ويستنتج من بعض الفتاوى التي أوردها البرزلي الفوارق الكبيرة التي يمكن أن توجد بين الحضرية والبدوية . فالبدوية تكد وتجد في العمل حتى لكأن عقد الزواج يصبح في بعض الأحيان نوعا من الإجارة والعبودية لا يمكن لها التملص منه بينما تكون حياة الحضرية أكثر رفاها فقد جاء مثلا فيما أورده البرزلي عما يلزم الزوجة من الخدمة : « وكان شيخنا عبد الله الشيبيني رحمه الله (توفي سنة 1380/782) (96) يحكي عن بعض العصريين من شيوخ شيوخنا أنه اتته امرأة من صنف الحضر ، وكان قاضي أنكحة ، تشكو وجع يديها

(91) انظر مثلا رأي أبي العباس بن حيدرة (توفي سنة 1376/778) شيخ البرزلي ، نوازل 1 : 264 و .

(92) انظر نوازل 1 : 264 و : « لانه شاع وذاع في العاقد أن شهد بعضهم لبعض على وجه الإعانة واستخلاص الحقوق ويستند بعضهم إلى خبر بعض من غير تحقيق علم ... » .

(93) انظر إدريس : Berbérie 2 : 566-568 وبرانشفيق : Berbérie ج 2 : 135-138 .

(94) نوازل 1 : 110 و - 110 ط .

(95) نوازل 1 : 231 و .

(96) فقيه قبرواني . انظر عنه نيل الإبتهاج للتنكي ص 149-150 والمعالم للرباغ 4 ص 203-204 وشجرة النور الزكية لمخلوف 1 ص 225 .

من العجيين ، فأمر زوجها بشراء خادم تخدمها . وجاءته بدوية تشكو شدة خدمتها من الطحن وحمل الماء والحطب وغير ذلك من خدمة البادية ومشقتها فأمرها بأن تبقى معه وتعاشره على ذلك . قال لأن نساء السوادي دخلن على ذلك بخلاف هذه . قلت : وهل هذا يؤدي إلى إجتماع النكاح والإجارة إن كانت عادة معتادة لا تخلف كما تقدم للمازري (توفي سنة 1141/536) (97) في إذا كانت العادة اسكان الزوج مع صهره انه نكاح وكراء والله أعلم (98) .

ولاشك أن المرأة التونسية في ذلك الزمن كانت محتجة مثلما يبدو ذلك من كثير من الإشارات . لكن يبدو أن حجاب المرأة كان يشدد بقدر صعودها في السلم الإجتماعي ، جاء عن البرزلي : « قلت ... ونزلت بتونس بعض بنات الملوك وحضر فيه (عقد زواج) شيخنا الفقيه الإمام وشيخنا الشيخ الفقيه أبو القاسم الغبريني (توفي سنة 1370/772) (99) فطلب علي عنها (100) فأنكر ذلك شيخ الموحدين رئيس الدولة الشيخ أبو محمد بن تافراجين رحمه الله (توفي سنة 1364/766) (101) وكان يقيسها مثل بنات القضاة ونحوهم ولو لاعمة كانت له لتكفل به . قال : الصواب في هذا أن التعريف كاف ممن حضر ويظن به الصدق ومثل الخصيان ونحوهم . وسمعت شيخنا الغبريني المذكور يقول : كنت لما جلست للشهادة بين الناس بتونس واضطرت للتعريف بالمرأة ، نسأل من نظن به العلم والإستغفال مثل الأطفال والخدم ونحوهم ولا نجترى بما يأتون به من المعرفين خشية الدلسة (102) » .

(97) انظر إدريس : Berbérie (فهرس) وكحالة 11 : 32 .

(98) نوازل 1 : 259 .

(99) فقيه تونسي خليفة ابن عرفة في خطابة جامع الزيتونة . انظر نيل الديباج ص 73 - شجرة النور 1 : 224 .

(100) أي رؤية شخصها لا الإكتفاء بوصفها .

(101) انظر عنه برانشفيق : Berbérie (الفهرس) .

(102) نوازل 1 : 233 ظ .



ولاشك أن التسامح في خروج المرأة كان يماشي نوعاً ما منزلتها الاجتماعية واحتجابها وإن لم نجد إشارة صريحة إلى ذلك والذي وجدناه هو حكم فقهي يربط خروجها بجمالها وسنها لا بمنزلتها الاجتماعية . جاء في نوازل البرزلي : « النساء في الخروج أربعة أضرب عجوز قد انقطعت حاجة الرجل عنها فهي كالرجل في ذلك ، ومتجالة لم تنقطع حاجة الرجل منها بالجملة فهي تخرج إلى المسجد ولا تكثر التردد كما قال في الرواية ، وشابة من الشواب فهذه تخرج إلى المسجد في الفرض وفي جنائز أهلها وقرباتها (103) ، وشابة فذة في الشباب فالإختيار في هذا ألا تخرج أصلاً (104) » .

#### (د) أصحاب المهن :

لاحظنا في استشهد أعلاه تلميحا إلى وضاعة مهنة القصابين في العقلية التونسية في القرن الثامن الهجري ولعل لإحتقار بعض المهن في جهة ما من العالم الإسلامي يجب أن يربط بنظره العرب والمسلمين لبعض المهن بصفة عامة مثل الحجامة وهي نوع من المداواة تعتمد أخذ الدم عن طريق بعض الآلات (105) .

لكن يمكن في بعض الأحيان أن تختلف النظرة باختلاف البلدان فقد جاء في نوازل البرزلي : « وكان شيخنا الإمام رحمه الله يقول : إن الحياكة بحسب البلدان وهي بأقليم إفريقية من الصناعات الرفيعة ، يستعملها وجوه الناس ، وكذلك كل صناعة بحسب رفعتها وخستها من البلدان ... وأظن أن

(103) العرف الآن في تونس أن المرأة لا تخرج في الجنائز .

(104) نوازل 1 : 122 و - 122 ط .

(105) انظر في ذلك مقال برانشفيق : « Métiers vils en Islam » (مجلة ستوديا اسلاميكا

رقم 16 سنة 1962 ص 41-60 . وتعليق الأستاذ بويحيى عليه في مجلة اريبكا سنة 1963/2 ص 209-210 .

ابن شاس (توفي سنة 1212/616) (106) أو غيره قال إنها تورث خبالا في العقل أو لأنها من شأن النساء ... (107) » .

ونجد في نوازل البرزلي أيضا بعض الإحترازاات من شهادة السمسار والقسام ولعل أشمل الملاحظات في موضوع المهن نجدها في صدد الحديث عن إمامة الصلاة ومن يصلح لها ومن لا يصلح ، جاء في النوازل : « ... مسألة شيخ بلد ليس فيه إمام وهو أحفظ من فيه إن كان يفرض على القوى والضعيف والأيتيم (108) واليتيم ويأكل النوبة (109) وما بقي من دراهم الفرائض (110) ولا يظهر منه للجماعة فلا يصلي خلفه بوجه لاسيما شيوخ البلد في هذا الزمان فلا يؤمنون على شيء أصلا ومثله المحرك والجزار والحجام والبيع فلا يكونون أئمة بوجه أيضا لأن الجزار والبيع لهم روائح قبيحة ويتعاملون بالرباء وغير ذلك ، والمحرك مروع للناس والحجام ينكشف على الحريم لاسيما حريم القرى لدخوله غالبا على الحريم بغير إذن / . والإمامة منصب عال وليس هؤلاء أهلا له لأنه لا يؤم القوم إلا أفضلهم ... » (110 مكرر)

وإذا ما لحضنا أهم الأسباب التي تجعل من بعض المهن وضيفة أو في منزلة ثانية حسب هذه الملاحظات فيمكن أن نقول بكل إيجاز إن ذلك يرجع إلى :

(106) هو أبو محمد عبد الله بن نجم الجذامي السعدي المصري المالكي . انظر عن مصادره معجم كحالة 6 : 158 .

(107) النوازل 1 : 238 ظ . انظر عن الحياكة ملاحظات برانشفيق (المقال المذكور أعلاه ص 50-56) وتعليق الاستاذ بويحيى المذكور ص 209-210) .

(108) من فقدت زوجها أو من فقد زوجته .

(109) النصيب ، ما يرجع إلى الشخص بعد قسمة ما .

(110) من قسمة الإرث . قال ابن عرفة في تحديد الفرائض : « علم الفرائض لقبا للفقهاء المتعلق بالإرث وعلم ما يوصل لمعرفة قدر ما يجب لكل ذي حق من التركة » (الحدود ص 532) .

(110) مكرر نوزل 1 : 113 و - ظ .

(1) بعض مفاهيم النجاسة الموجودة في الإسلام وحتى في غير الإسلام من الأديان والعقليات ، وهي عالقة خاصة بالدم مثل ما هو الشأن في مهنة القصابين والحجامة . ويتصل بهذا شيئاً ما المهن التي تنتج روائح كريهة وتوجد في كتب الفتاوى عادة مناقشات طويلة تتعلق بتلك الروائح ووجوب التخلص منها خاصة عند الذهاب إلى صلاة الجمعة .

(2) بعض المهن التي تكون أكثر تعريضاً لأصحابها لخرق بعض القوانين الدينية كاستعمال الرباء أو كثرة الأيمان التي تؤدي بصفة عامة إلى الحنث . والإسلام يعبر الكلمة قيمة كبرى وتخصص الأبواب للأيمان في كتب الفقه والفتوى ، ولعل ذلك التشديد هو الذي أنتج رد فعل يهدف إلى التفصي من الكلمة وتمثل في تخريجات وحيل افقدت الكلمة العربية في النهاية كل قيمتها . لذا كانت المهن التي يكثر فيها الكلام وبالتالي القسم وبالتالي الكذب لأن « كل حلاف كذاب » كما يقال ، محتقرة شيئاً ما في تلك العقلية المتأثرة بالقيم الدينية حتى وإن كانت تخرق الكثير منها .

(3) بعض المهن أو المناصب الاجتماعية السياسية محتقرة شيئاً ما لبعض الأخلاق والقيم الدينية المنتشرة عند عامة المسلمين وهي نتيجة في الغالب لصراع بعض رجال الدين المشاهير مع القوى السياسية .

## (2) تدهور القيم الدينية :

إن هذه النقطة شائكة التناول لأن المسلمين كانوا دوماً يشتكون من التدهور الخلقي والديني (111) ولكننا نرى في عصر البرزلي والعهد القريب منه ظواهر تدهور واضحة لاشك فيها تجمع عليها أحكام الملاحظين . ونريد

(111) انظر بعض الملاحظات عن ذلك في مقالنا : فكرة التقدم عند المفكرين الإسلاميين القوامي المنشور في أعمال الملتقى الإسلامي المسيحي المنعقد بتونس سنة 1974 . (المطبعة الرسمية تونس 1976) ص ص 27-240 .

هنا أن نلمح إلى ثلاث ظواهر مرتبطة في الأصل ببعض الفرائض أو القيم الدينية :

### (أ) ظاهرة الحج :

فهذه فريضة الحج قد فقدت محتوياتها الدينية فيما يبدو وأصبحت في الغالب ظاهرة إجتماعية قبل كل شيء . لا بد أن نلاحظ هنا أن الفقهاء في ذلك العصر وربما منذ بصغة قرون خلت قد هوتوا من فرض الحج وألحوا على شرط الإستطاعة مبينين أنه فقد أو يكاد في تلك العصور لعدة أسباب من أهمها إختلال الأمن بل صرح بعض الفقهاء بعدم وجوبه في تلك الظروف ولم يقوموا به هم أنفسهم ... (112)

لكن نجد بخلاف ذلك عند العامة فيما يبدو بعض التهافت عليه لإعتقادهم أنه يسقط ما في الذمة من الذنوب وذلك ناتج على الراجح عن شدة إقترافهم للآثم وشعورهم بالذنب ، ونجد عند فقهاء تلك العصور محاربة قوية لهذه الظاهرة . جاء في نوازل البرزلي : « قلت ونحوه نقل السبتي (113) في المناسك عنه (البخاري) فقال : يزعم بعض الجهلة أن الحج يسقط ما في الذمة من الحقوق كالصلاة والزكاة وغير ذلك من الحقوق وهو خرق للإجماع ، وإنما يكفّر الحج المبرور إثم التأخير لأنه هو الذنب . أما إسقاطه لما استقر في الذمة من صلاة أو زكاة فلم يقل به أحد من علماء المسلمين بل عليه أن يأتي بذلك كله . ولقد أحسن ابن الصلاح (114) في تنبيهه على الحديث الذي أولع العوام بالتروخص فيه ونصه : « ولا يغتر بما روي أن أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة » ثم ظن الله لم يغفر له » ، فإنه حديث ضعيف . قال :

(112) سنعود إلى هذه المشاكل المتعلقة بالحج في فرصة قريبة قادمة .

(113) لم نتمكن من التعرف عليه بالضبط لكثرة الحاملين لهذه النسبة .

(114) هو عثمان بن عبد الرحمن عالم الحديث المشهور (1181/577-1245/643) . انظر عن مصادره معجم كحالة 6 : 257 .

هو مما يغفر الجهلة بالمعاصي . قال : وظن بعض الجهلة أيضا أن قوله (ص) « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة مما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام (114 مكرر) . فيقصد إلى الإجزاء عن الفوائت حتى لو كانت عليه صلوات وصلى في مسجد المدينة أو المسجد الحرام صلاة يوم أن ذلك يجزيه عنها وتبرأ ذمته . قال النوري (115) : وإنما معناه فيما يرجع إلى الثواب ، فثواب الصلاة فيه يزيد على ثواب ألف صلاة فيما سواه ولا يجزىء عن الفوائت وهذا الاختلاف فيه (116) » .

وقال البرزلي بعدما أورد للخي (117) فتوى جاء فيها « أن الطريق اليوم من الإسكندرية وما بعد ذلك إلى مكة على صفة لا يلزم معها فرض الحج ولا يؤثم من تأخر في هذه الأحوال » لأنه يكون من باب إلقاء النفس إلى التهلكة (118) : « وبهذا كان يفتي شيخنا الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله الشيبيني (توفي سنة 1380/782) رحمه الله وقد جرب الطريق يقول : الذي يقصد الحج في هذا الوقت إنما هي شهوة نفس وهوى وصيفة من جل هذه العوام لا لقصد إليه تعالى ، فتراه من حين خروجه يرتكب من الآثام من سبب الغير وتعاطي الحرام وترك الصلوات والقذف والغيبة وعدم الوقوف عند حدود الله ، وقد ينضاف إلى ذلك الجهل بأحكام كثير من مسائل الحج فترى حجته الغالب عليها أنه مأثوم فيها / غير مأجور ولاختلال كثير من أمر دينه بما بيّنا عليها (119) » .

(114) مكرر روي ابن ماجة حديثا قريبا من هذا .

(115) هو يحيى بن شرف (1233/631-1277/676) انظر عنه معجم كحالة 13 : 202-203 .

(116) التوازل 1 : 56 .

(117) من شيوخ المازرى ، توفي سنة 1085/478 . انظر عنه إدريس : Berbérie (الفهرس) وانظر عن الحج في العصر الصنهاجي ملاحظات إدريس : Berbérie ج 2 : 713-714 .

(118) التوازل 1 : 145 ط .

(119) التوازل 1 : 145 ط - 146 و .

ويضمن لنا البرزلي بعد ذلك في نوازله قصة خيالية حكاها طالب مغربي في مجلس شيخه الشيبسي وهي جديرة بأن تحشر في رسالة الغفران للمعري أو رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد ولا ينفي تخيلها تصويرها للواقع الذي نتحدث عنه ، قال البرزلي : « ولقد حكى له طالب من المغاربة بحضرتي أنه يقال : اختصم شياطين المشرق والمغرب أيهم أكثر غواية ، فقال شياطين المشرق لشياطين المغرب : نحن أشد منكم لأننا نحمل المرء على المعاصي وارتكاب المحظورات في مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فقال شياطين المغرب : نحن أشد منكم لأننا نجد الرجل في أهله وولده يؤدي الفرائض من الصلاة والزكاة وغير ذلك وهو في راحة وملائكته معه كذلك من قلة التبعات فإذا قال القول : في التشوق إلى أرض الحجاز نخسته فيبكي ونحمله على الخروج فيخرج ، فمن يوم خروجه نحمله على ترك الفرائض وارتكاب المحظورات من يوم خروجه إلى يوم دخوله إلى أهله ، فخير نفسه وماله ودينه في شرق الأرض وغربها . فسلم لهم شياطين المشرق شدة الغواية (120) » .

ويضيف البرزلي لشهادة شيخه وشهادة الطالب المغربي شهادته الخاصة فيقول : « قلت : ولاشك أنني شاهدت في سفري للحج (121) بعض هذا وكثيرا منه . فإذا كانت الحالة هذه فبتحصيل فريضة تضييع فرائض كثيرة ... (122) » .

ولاشك أن الكثير من هذه الجوانب المتعلقة بظاهرة الحج جديرة بأن تقارن بجوانب شبيهة بها في عصرنا الحاضر ... (122) » .

(120) نوازل 1 : 146 و .

(121) وذلك عام 799 وعام 800 هـ انظر النوازل 1 : 292 ظ . انظر أيضا مقال : الإمام البرزلي للهيلة ص 190-191 .

(122) نوازل 1 : 146 و .

## (ب) ظاهرة الصيام :

ونلاحظ أشياء شبيهة بهذا فيما يتعلق بفريضة الصيام ، فقد جاء مثلا في صدد الحديث عن السنة النبوية المتعلقة بتقديم الفطر وتأخير السحور قول البرزلي : « وكان بعض شيوخنا يقول : هذا إنما هو عند المتقدمين الذين كانوا يأكلون المعلقة من الطعام ولا يشبعون ، ربما ضرهم ذلك في هلاك أجسامهم وأما هذا الزمان فصومهم صوم البهائم يأكلون الطعام الكثير حتى يشبعوا ويمسكون بالنهار ، فهذا السحور في حقهم وعدمه سبب بل ربما زاد تركه في نحولهم ووجوده يسنهم ويورثهم الكسل عن العبادة لما روي عن بعض السلف أن من أكل كثيرا فشرب كثيرا ففاته كثير (123) » .

ويبدو أن في ذلك العهد تعددت مظاهر الإحتفال بالمولد النبوي (124) وبشهر الصيام واستعمل حتى نوع من البوقات في رمضان ، قال البرزلي : « وشاهدنا اليوم في إفريقية وقود الثريات والقناديل الكثيرة في جامع الزيتونة وغيره وينفق في ذلك أموال ولا مغيّر ولا منكّر فيحتمل أن يكونوا وقفوا على شيء بالجواز ووقعت الغفلة عنه (125) . وكذا البوقات في رمضان في جوامع إفريقية حتى في جامع الزيتونة . وعلى ظني أنني وقفت عليها لابن الحاج المتأخر (126) وأنه أنكرها في جملة ما أنكر . وسألت عنها شيخنا المفتي الغبريني فأحتج على ما وقع في جامع الزيتونة ، فقلت له ليس بحجة لأن الفقهاء

(123) نوازل 130 و .

(124) يبدو أن هذه الإحتفالات قد ظهرت في شمال إفريقية مع المرينيين وقد انتشرت في إفريقية بصفة خاصة مع احتلال أبي الحسن المريني لإفريقية في منتصف القرن الثامن . انظر إشارة إلى ذلك في استشهاد البرزلي أسفله . واستنكر البرزلي شغب العامة بهذا الإحتفال في عهده واعتبره بدعة . انظر أيضا مقال الأستاذ السلامي : عادة الإحتفال بالمولد النبوي (مجلة الهداية التونسية سنة 1 ، عدد 3 سنة 1974 ص ص 28) .

(125) نجد في نوازل البرزلي إشارات كثيرة لزينة المساجد مثلا 78 و - 83 و .

(126) ليس المقصود ابن الحاج الذي ذكرناه أعلاه (تعليق رقم 45) وإنما الراجح أنه يقصد أبا عبد الله الحيدري المعروف بابن الحاج صاحب المدخل (توفي سنة 1336/737) انظر عنه معجم كماله 11 : 284 .

لم يجوزوها إلا في الأعراس خاصة أجازها ابن كنانة (127) ، فسكت عني .  
وسألت عنها شيخنا الفقيه الإمام فأجاب بالجواز وأن البوقات المذكورة في  
الأعراس غير هذه فيها طرب يعملها أهل الأندلس والا فهذه تنفر  
الحر (128) . فقلت له : الحر ينفر من كل ما لا يألف ولعل هذا منها .  
وذكر أن ابن عبد السلام (129) أمر بأدب المنكر لهذا إن عاد ، وقد نزلت  
بالقبروان ففيها وقعت الفتيا (130) » .

### ج) زواج المتعة :

ومن أغرب أمثلة التفصي من قوانين الزواج التلميح المتعلق برواسب  
زواج المتعة (131) في المغرب الإسلامي فقد سئل ابن رشد « عن رجل عندهم  
(أي في الأندلس) من أهل العلم والمعرفة تزوج امرأة نكاح متعة إلى أجل  
بغير ولي والصداق نصف درهم من هذه القرارات شهادة رجلين غير مقطوع  
بهما في الحقوق وسئل عن نكاحه هذا مع تحريمه فقال إنما تبعته نفسي ولم  
أقدر على نكاحها لمنع أبي ذلك وخفت أن أزي بها فتزوجتها على ما قيل عن  
ابن عباس ... (132) » .

ولاشك أن هذا يتعلق ببعض المثقفين المجان الذين يعللون مجونهم  
ببعض التخريجات الدينية ولعلمهم أول المقرئين داخلين بمغالطتها ولكنهم  
يقدمون ذلك بين الجد والهزل ... وهذا غير مستغرب وقوعه في المجتمع  
الأندلسي في ذلك معهد ... وهذا ما سبب بصفة خاصة حتى ابن رشد إذ

(127) من أصحاب مالك بن أنس .

(128) يقصد على الراجح الحر الوحشية .

(129) هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام من أبرز شيوخ ابن عرفة ، توفي سنة 1348/749 .  
انظر أسفلة رقم 151 .

(130) النوازل 78 ظ .

(131) المعروف عن زواج المتعة أنه سمع به الرسول في بداية الأمر في بعض الحالات الخاصة ثم  
نسخ وبقيت الشيعة متشبثة به ...

(132) نوازل 214 و .



يعلق على الخبر : « وما ذكرت عنه من المعرفة والطلب حجة عليه توجب خزي الدنيا والآخرة وتنزله أسوأ المنازل لأنه عرف الحق فعانده وخالفه اجترأ على الله وتلاعيا بدينه ، وروى أن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عالما لم ينتفع بعمله فكيف بمن أصرت به معرفته وتطرق بها إلى مواجهة المحظور ومخالفة الجمهور (133) » .

والأغرب من هذا هو ما يشير إليه البرزلي من وجود أشياء من هذا القبيل بين أهل جربة ، يقول في النوازل : « وسمعت أهل جربة من الشيعة اليوم (؟) على ذلك ، يبيت مع المرأة باسم النكاح ويقال : تزوج فلان فلانة بغير شهود كما ذكر في التمهيد (134) . وقد ذكر القراني أن الأخذ بالرخص جائز ما لم يؤد إلى صورة مجمع عليها مثل هذا النكاح فيكون مجمعا على تحريره (135) » .

ولا علم لي بوجود فيئات شيعية بجربة وإنما المتعارف أن الخوارج وخاصة الإباضية هم الموجودون بجربة (136) . فهل وقع خطأ في النص أم هو استعمال مجازي يقصد به الخوارج ؟ ولا علم لنا باعتناق الخوارج لمبدأ من هذا القبيل . فهل يكون ذلك من باب الإشاعات التي تتقاذف بها الفرق المختلفة للقدح في بعضها بعضا ؟

### (3) اشتداد ظاهرة التصوف :

لعل من أحسن الدلائل أيضا على تدهور بعض القيم الدينية أن ظاهرة التصوف قد اشتدت في القرن الثامن والتاسع ولا نريد أن نشير إلى المراحل

(133) نوازل 214 ظ .

(134) توجد مجموعة من التأليف تحمل مثل هذا الرسم انظر كشف الظنون 1 : 483-485 والياقلائي كتاب بهذا الاسم ولكن لا توجد فيه هذه الملاحظة .

(135) نوازل 214 ظ .

(136) انظر عن الإباضية وتعاليمهم وانتشارهم خاصة مقال اباضية في دائرة المعارف (ط. الجديدة) ج 2 : 669-682 (ليفيسكي) .

التي مر بها هذا التصوف الإسلامي في إفريقية وفي المغرب الإسلامي بصفة عامة فهذا عمل ما زالت معالمه غير واضحة كل الوضوح ويحتاج إلى دراسات أخرى متعددة لكن يبدو للدارسين أن الشغف بالتصوف قد اشتد بصورة واضحة ابتداء من القرن السادس نتيجة تطورات مختلفة ونتيجة تأثير بعض مشاهير الصوفية الأندلسيين والمغاربة أمثال ابن العريف (توفي سنة 1141/536) وابن براجان (توفي سنة 1141/536) وابن قسي (ت. 1151/546) وأبي مدين شبيب (ت. 1197/594) ومحي الدين بن عربي (ت. 1240/638) وأبي الحسن الشاذلي (ت. 1258/656) (137) .

ونريد في هذا الصدد أن نلمح فقط إلى بعض الإشارات التي وجدناها خاصة في الجزء الأول - المذكور - من نوازل البرزلي والتي تؤكد هذا الإزدهار وربما إنحراف التصوف بصورة واضحة إلى بعض مظاهر الشعوذة وإلى إنتشار حلقات الذكر وما فيها من سماع وشطح .

جاء في النوازل : « وسئل أيضا (أبو محمد) (138) عن هؤلاء الذين يجلسون في الطرقات ولهم ملاعب يورون الناس أنهم يقطعون رأس الإنسان ثم يدعونه فيجيبهم حيا ويجعلون من التراب دراهم ودنانير ويقطعون السلسلة فهل تراهم بهذا الفعل سحرة ؟ فقال : إن لم يكن فيه كفر فلا شيء عليهم وهذا إنما هو خفة يد وملاعب . قلت : كان شيخنا الشيخ الفقيه الإمام رحمه الله يقول : الصواب أنه من عمل السحر وينكر على من يقف ينظر

(137) انظر عن مختلف هؤلاء الأعلام المقالات المخصصة لهم في دائرة المعارف . وانظر بصفة عامة محمد أبهلي النبال : الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي (تونس 1965) وبرانشفيق Berbérie ج 2 ص 317-351 ومقال Le sufisme en occident Musulman au XII<sup>e</sup> et au XIII<sup>e</sup> S. de J.C. (A.I.E.O. 1934 - 35 pp. 145

انظر أيضا مقال الهيئة المذكور أعلاه .

(138) الراجح أنه يقصد أبا محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (922/310-996/386) انظر عنه إدريس : Berbérie (الفهرس) .

كخلق باب منارة ويقول هو جرحه في حقه وكذا من يسمع سيرة عترة ، جرحه في حقه لأنه كذب ومستحلي الكذب كاذب (139) » .

ويبدو لنا أن هذا التشدد ، وهو دليل على طغيان هذه الظاهرة التي ولدت عنفا في معاكستها ، ليس خاصا بابن عرفة لأننا نجد البرزلي يضيف « وكذا أخبرني سيدي أبو عبد الله البطرني (توفي سنة 1391/793) (140) أن الشيخ القاضي ابن القداح (ت. 1334/734) (141) سئل بحضرته عن ذلك فأفتى بهذا ، قال : وكذا سيرة ذو الهمة والبطال (142) » . ويضيف البرزلي : « وكذا كتب الطلاس والحروف العبرانية جارية على هذا المعنى من الخلاف المتقدم غير أنني رأيته على ظهر بعض كتب شيخنا الفقيه الإمام رحمه الله كتابة لبعض الأدواء بألفاظ عجبية بخطه وأظنه كان يستعملها فمنها ... (143) » .

فكان ابن عرفة إذن رغم تشدده في هذا الموضوع لم يستطع إلا الرضوخ لتيار جارف فرض نفسه في عهده على الخاصة والعامة ولعل ذلك سيزداد مع الأيام ...

وفي هذا الصدد يمكن أن نذكر أيضا « إدعاء المعرفة بالغيب » فقد قال البرزلي : « وسئل بعض الإفريقيين عن قوم يدعون الصلاح ويقولون بعلم

(139) نوازل 90 .

(140) هو محمد بن أحمد البطرني (أبو الحسن ، أبو محمد) ، خلفه ابن عرفة في خطابة جامع الزيتونة عند حجه سنة 792 هـ . انظر عنه نيل الإبتهاج ص 273 وفهرست الرصاع (الفهرس) والتعريف بابن خلدون (الفهرس) والحلل الستدسية للسراج خاصة ص 697-698 وشجرة النور 1 : 226 .

(141) هو أبو حفص عمر بن علي بن قداح الهواري خلف ابن عبد الرفيق على قضاء تونس سنة 1336/733 . توفي سنة 1334/734 فخلفه في القضاء ابن عبد السلام . انظر الزركشي : تاريخ الدولتين ص 70 . ابن فرحون : الديباج ص 187 (وفيه انه توفي سنة 1336/736) .

(142) نوازل 90 . انظر في دائرة المعارف مقالي : ذو الهمة ج 2 : 240-246 (كانار) والبطال ج 1 : 1136-1137 (كانار) .

(143) نوازل 90 .

ما في بطون النساء وأين يموت ووقت نزول الغيث وقد تواترت بذلك أخبارهم . قلت : بل يجب هجرانهم مطلقا وهم أشد من هؤلاء الذين ذكرنا من الوهبة (144) لأنهم يزعمون أنهم أهل السنة واعتقادهم ذلك كفر لأنه إعتقد خلاف نص القرآن بذكر ذلك . فإن تمادى على إعتقاده فهي ردة ويجرى على أحكام المرتدين (145) .

ويبدو لنا من خلال نوازل البرزلي أن الفقهاء قد أصبحوا يستنكرون بحساسية مفرطة كل ما من شأنه أن يذكر بما يقع في حلقات الذكر الصوفية أو ما يمكن أن يؤدي إليه وربما ذلك من باب سد الذرائع ، فحتى مجرد الدعاء عقب الصلاة أصبح « مشكوكا فيه » خاصة إذا ما اقترن بهيئة ما (146) في بسط الأيدي أو بحلق جميع الرأس ... (147) بل أصبحت تثار مشاكل حتى فيما يتعلق بالدعاء للصحابة في الخطب الدينية « على ما جرت عليه العادة في زماننا » كما يقول البرزلي (148) ولاشك أن هذا التخرج ناتج عن إستغلال تيار الولاية والصلاح والتبرك بالصحابة لتبرير سلوكهم .

وبطبيعة الحال فإن الإستنكار يتجه بصفة خاصة إلى ما يوجد في حلقات الذكر والتصوف من تطريب وتلحين فقد « سئل المازري عن قوم يجتمعون بالليل بعد صلاة العشاء الآخرة ومعهم قناديل يمشون السور ويذكرون أنهم يريدون العسس يقولون باجتماع أصواتهم : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم بتطريب وتلحين ... » فيجيب المازري بأن الإجتماع للذكر بالتطريب والتلحين ورفع الصوت قد نهى عنه العلماء وانكروه وعدوه بدعة (149) .

(144) فرقة خارجية انتقدها البرزلي عديد المرات مثلا نوازل 76 ظ .

(145) نوازل 76 ظ .

(146) نوازل 80 ظ .

(147) نوازل 81 ظ .

(148) نوازل 73 و .

(149) نوازل 168 ظ وانظر أيضا نوازل 71 ظ . وانظر ملاحظات عن تاريخ التصوف خاصة في العصر الصنهاجي ، إدريس : Berbérie 2 ص ص 692 .

لكن يبدو أن بعض مظاهر التصوف قد فرضت نفسها لدى الخاص والعام وأصبح بعض مشاهير الفقهاء مضطرين لمسايرتها رغم بعض التحرج خاصة في مواكب المولد أمام بعض الملوك فلقد جاء في النوازل : « وسألت شيخنا الإمام عن سماع الغناء فقال : أما ما فيه تحزين فجائز إذا كان نده (؟) (150) ولا يخرج به ، وحضرته مرة مع ابن عبد السلام (ت. سنة 748/749) (151) وابن هارون (ت. 1349/750) (152) والبطرني (1391/793) في المولد الذي صنعه أبو الحسن المريني (153) . وسأله بعض الطلبة هل كان فيه شبابات وطيران قال : أظن ذلك . وحضره مرة في دولة الأمير عمر (154) لكن يحمل حضورهم على أن فيه بعض التقية . وسألته عن الشطح فقال : الصواب منعه وإن كان فيه للصوفية شيء ثم ذكر حكاية ملك وحضره مع خاصة الناس ورثي في يده العود . قلت : رأيت في بعض كتب المتصوفة جواز التحريك والشطح ويذكر فيه أثرا عن أوائل هذه الأمة (155) . »

وقد وصل تأثير الصالحين إلى حد أن الحياة والمادة أصبحتا لديهم سواء فتأثيرهم لا ينقص بمماتهم بل لعله يزداد ففي نوازل البرزلي كثير من الإشارات إلى قبورهم والتراب المأخوذ منها وتأثيره في البشر بل نجد بعض الفقهاء يخوضون في مسألة « إخراج الميت الذي نظن صلاحه بالترغريت » ويجب بعض المفتين أن ذلك « بدعة حدثت فينبغي أن يأمر بقطعها ... (156) . »

(150) لا نتبينها في المخطوط . وفي المخطوط رقم 1/5429 : نذرته (ورقة 52) ولعلها « ندبة » (؟) .

(151) من أشهر شيوخ ابن عرفة، انظر عنه خاصة الديباج ص 336-337 - نيل الديباج ص 242 - شجرة النور الزكية رقم 210 - حلال السراج (الفهرس) - فهرسة الرصاع 86-87 .

(152) من شيوخ ابن عرفة انظر عنه خاصة : نيل الابتهاج 243 - شجرة النور 211 - حلال السراج 598-600 - الرصاع 87 .

(153) يكون ذلك سنة 1348/749 لأن أبا الحسن المريني دخل تونس في جمادى الثانية سنة 748هـ/سبتمبر 1347م .

(154) يمكن أن يكون عمر بن أبي بكر بن يحيى أو أبا حفص عمر أخا أبي فارس عبد العزيز انظر عنهما برانشفيق : Berberie (الفهرس) .

(155) نوازل 64 ط ومخطوط رقم 15529 : 52 و-ط .

(156) نوازل 124 و .

## الخاتمة :

تلك بعض الأمثلة هي في الغالب من جزء واحد من نوازل البرزلي أوردنا منها ما أمكن جمعه تحت بعض العناصر التأليفية ولكن يمكن تعديد الملاحظات أكثر مما فعلنا إذ نوازل البرزلي هي في الحقيقة منجم ثري للمعلومات الإجتماعية والإقتصادية بمختلف أنواعها .

والثروة الكبيرة الموجودة في مثل هذه التصانيف تسمح لنا في رأيي بتجسّم أعاب النظر فيها ودراستها وربما تحقيقها علميا إذ إذاك فقط يمكن لكل إنسان أن يفتش عن بغيته في هذا المنجم الخصب لأن هذه المادة مختلطة جدا بالنسبة إلينا وهي وإن كانت مرتبة حسب الأبواب التقليدية للفقه الإسلامي ويمكن أن تقودنا تلك التبويبات شيئا ماء مع شيء من الحدس ، إلى ما نريد لكن لا يجب أن نغتر كثيرا بذلك إذ قد نجد الفائدة الكبرى التي نفتش عنها في خضم مواد لا تهمنا بتاتا ذلك أن ما يهمنا اليوم كان بالنسبة إليهم عرضيا مثلما أصبح في الغالب ما كان جوهريا بالنسبة إليهم ثانويا بالنسبة إلينا ، ولعل هذه العراقيل تتطلب من الناحية المنهجية أن يقوم بعض الباحثين باصدار فهرس تحليلية مفصلة لمادة هذه الأبواب المختلفة وتصنيفها حسب مراكز لاهتمام متعددة مثلما فعل (E. Amar) بالنسبة لمعيار الونشريسي و (Bousquet) بالنسبة للمدونة سحنون وأحياء الغزالي ... فأعمال من هذا القبيل مهما كانت عيوبها ومهما كان الخلل الذي يمكن أن يعتربها، من شأنها أن تقدم بعض العون للباحثين الذين تختلف مشاربهم وأهدافهم وقد تختلف أيضا أهداف الباحث الواحد باختلاف الظروف ولا يمكن له في كل مرة قراءة آلاف الصفحات المخطوطة للتفتيش عن بعض الجزئيات في كتاب واحد .